طريق حجاج الشـــام ومصر
انتشار الاسلام الى منتصف القرن السابع الهجرى

د • سليمان عبد الغنى مالكى
مركز أبحاث الحج ــ جامعة أم القرى

نهدف في هذا المقال الى اســـتخلاص وصف لطريق الحجاج القادمين إلى الأراضي المقدسة من الشام ومن مصر من المصادر الأولية للتاريخ الاســـلامي وما كان يتم من تحسين للخدمات في هذين الطريقين، ثم ماكان يقع على حجاج هذين الطريقين من إعتداءات من بعض القبائل البدوية • ونحن نضع الصورة التاريخية المستقاة من أوثق المصادر لهذين الطريقين جنبا الى جنب لنتيح للقارىء فرصة المقارنة والاطلاع على القدر الكبير من التشابه بين الطريقين ، والتنبه الى الفوارق الضئيلة التى ميزت واحدا منها عـــلى الآخر ، ورد هذه الفـــروق الى ظروفها التاريخية ، والأسباب الواقعية التى دعت اليها ••

أولا : ــ طريق حجاج الشـــام :

(أ) وصـــف الطريق :

يخرج الركب الشامى من مدينة دمشق حيث يتجمع الحجاج فى هذه المدينة ثم يتجهون الى مكان يسمى الكسوة وهى قرية تنزل فيهـــا القوافل بعد خروجهم من دمشق وتكثر فيها الأنهار ويتزود منها بالماء[1] •

---

(١) ياقوت : معجم ، ج٤ ص٢٦٠ •

ويرحل الركب متجها الى مكان يسمى الصنمين ويقع فى أوائل حوران[٢] ثم يرحلون الى درعا وهى قرية صغيرة يكثر فيها الماء ومن هنا يتجهون الى بصرى وهى قرية صغيرة يقيمون فيها ثلاثة أيام[٣] . وقد اشتهرت عند العرب قديما وقد مر بها القائد خالد بن الولية حينما توجه من العراق لمدد أهل الشام[٤] . ثم يرحل الركب الى الزرقاء[٥] ، وبعد الى زيزا حيث يقيمون فيها ثلاثة أيام وبها أسواق وتوجد فيها برك تسمى الحجاج وزيزا فى اللغة هى المكان المرتفع[٦] ، ثم يرتحل الركب الى الكرك وتكثر الأودية فيه بعض الآبار ثم يرحل الركب الى الحسا وهى تقع بين الكرك ومعان فيرد الحجاج ماءها ومنها يرحلون الى معان .

ومن المعلوم أن معان تقع فى طرف بادية الشام ويقال انها بوابة الحجاز ، ومعان مدينة قديمة يعرفها العرب منذ الجاهلية وفيها موارد للمياه[٧] . ثم يرحل الركب حتى يصل الى العقبة المعروفة بعقبة الصوان وهى عديمة الماء ولا يستطيع الحاج المكوث فيها بسبب صعوبة الاقامة فيها[٨] .

ثم يرحل الركب الى ذات حج وفيها ماء عذب يستقى منه الحجاج ثم يستعدون للرحيل الى تبوك ومنها يستعدون للمغالدرة الكبرى حيث انهم يحملون معهم من ماء تبوك وهو ماء يسرع فساده اذا حصل ويتغير طعمه متجهين الى العلا . وتشتهر العلا بكثرة مياهها ويوجد بها نخل وزرع ويتزودون منها الماء بعد اقامتهم بها يومين مستعدين للرحيل

---

(٢) المصدر السابق ، جـ٣ ، ص٤٤١ .
(٣) المصدر السابق ، جـ١ ص٣١ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ٢ ، ص٤٠٧ .
(٥) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٤٥٤ .
(٦) الزبيدى : تاج العروس ، مادة زيزا .
(٧) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٤٥٥ .
(٨) ياقوت : معجم ، جـ٤ ، ص١٥٧ .

الى هدية ولا يقيمون فيها فترة طويلة لرداءة مائها[٩] . ثم يرحلون منها الى عيون حمزة حيث يستعدون لدخول المدينة المشرفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام . فتمتع الحجاج بالزيارة ويقيمون بالمدينة عشرة أيام ويخرجون منها الى ذي الحليفة وهي ميقات أهل الشام بينها وبين المدينة ستة أميال ثم يتجه الى وادي الصفراء ويشقون هذا الوادي ثم يرحلون الى بدر حيث يلتقون مع الركب المصري متجهين الى مكة[١٠] .

(ب) الخدمات :

من المعلوم أن خلفاء الدولة الراشدين والخلفاء الأوائل من الدولة الأموية لم يهتموا بطرق الحج فلم يقدموا لهم أية خدمات فيها ولقد بدأ الاهتمام بطرق الحج فى سنة ٧٩هـ فى خلافة عبد الله بن مروان بسبب الأمطار التى الحقت ضررا بالحجاج وبالاعراب القاطنين القرى المجاورة لمكة فقد أرسل عبد الملك بن مروان الى عامله على مكة أموالا ينفقها لكل من تضرر من جراء هذه الأمطار[١١] .

وفي سنة ٩١هـ حج بالناس الوليد بن عبد الملك فخرج من دمشق واهتم بطريق الركب الشامي وكان يوزع الأموال على القبائل التى تقطن على طريق الركب الشامي وأمر بحفر بعض الآبار كما أنه وزع دقيقا على سكان القرى الواقعة على طريق الركب الشامي[١٢] .

وفى سنة ٩٧هـ حج بالناس سلمان بن عبد الملك وقد أمر من معه بتوزيع الطعام على الحجاج ويقال انه حمل طعاما على سبعمائة بعير ووزعه على الحجاج[١٣] .

---

(٩) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٤٥٧ .
(١٠) على المالكى : الشامى الصغير ، ورقة ٣٦ .
(١١) ابن الاثير : الكامل ، جـ٤ ، ص٤٥٢ .
(١٢) المصدر السابق جـ٤ ، ص٤٥٥ .
(١٣) الطبرى : تاريخ جـ٦ ، ص٥٢٩ .

وفى سنة ٩٩هـ حينما بويع بالخلافة عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه اهتم بطريق الركب الشامى وحفر آبارا فى مناطق مختلفة على طول هذا الطريق[١٤] .

ومنذ سنة ١٠٠هـ الى سنة ١٣٤هـ لم تذكر لنا المصادر أية خدمات قدمت للحجاج فى هذه الفترة ولكن فى سنة ١٣٥هـ أمر الخليفة أبو العباس السفاح العباسى بتمهيد طريق الركب الشامى وأمر بحفر آبار لسقيا الحجاج[١٥] .

وفى سنة ١٣٧هـ حج أبو جعفر المنصور بالناس وفى طريق عودته عاد مع الركب الشامى وأمر باصلاح الركب الشامى وأمر ببناء المساجد فيه وواصل العودة مع الركب الشامى حتى دخل بيت المقدس ثم عاد الى العراق[١٦] .

وفى سنة ١٤١هـ أمر أبو جعفر المنصور واليه فى الشام صالح ابن على بن عبد الله بن العباس بتعمير خطا لركب الشامى وبعمل محطات لاستقبال ركب الحج الشامى[١٧] .

وفى سنة ١٤٨هـ اهتم أبو جعفر المنصور بحفر الآبار بين تبوك والعلا على طريق ركب الحاج الشامى[١٨] .

وفى سنة ١٦٦ هـ أمر الخليفة المهدى بعمل محطات للبريد فى طريق الركب الشامى وأمر صاحب البريد بشراء بغال وابل يقوم بتوزيعها على كافة طرق البريد[١٩] .

---

(١٤) المصدر السابق ، جـ١ ، ص٥٥٣ .
(١٥) اليعقوبى : تاريخ ، جـ٢ ، ص٣٥٢ .
(١٦) ابن الاثير : الكامل جـ٥ ، ص٤٥٩ .
(١٧) ابن الاثير : الكامل ، جـ٥ ، ص٤٨٠ .
الجزيرى : درر الفوائد ، ص٢١٠ .
(١٨) اليعقوبى : تاريخ ، جـ٢ ص٣٨٩ ،
(١٩) الطبرى : تاريخ ، جـ٨ ص١٦٢ .

وفى سنة ١٧٠ هـ أمر الخليفة هارون الرشيد بحفر الآبار فى طريق ركب الحاج الشامى[٢٠] .

وفى سنة ٢٠٩ هـ كتب أمير الحج صالح بن العباس الى الخليفة المأمون يستأذنه فى عمل البرك فى طريق الحاج الشامى فوافقه على ذلك يطلب منه أن يجدد بناء المحطات وأن يقوم بحفر الآبار واصلاح القديم منها[٢١] .

وفى سنة ٣٦٦هـ حجت جميلة بنت ناصر الدولة بن حمدان صاحب الموصل وقدمت خدمات فى طريق الحاج الشامى فأمرت ببناء البرك بين معان وتبوك وأمرت بحفر الآبار بين رابغ وعسفان وقامت بتوزيع دنانير الذهب على الاعراب القاطنين بطريق الحاج الشامى كما اسقت الحجاج بطريق الركب الشامى الماء بالسكر والثلج وقامت بأعمال خيرية جليلة[٢٢] .

وفى سنة ٥٥٥هـ حج نور الدين محمود بن زنكى سالكا طريق الحاج الشامى وأمر بتوزيع صدقات على سكان هذا الطريق[٢٣] . ويمكن اعتبار ماقام به نور الدين آخر الخدمات التى قدمت فى طريق الركب الشامى خلال الفترة الزمنية التى يهتم بها هذا البحث .

(جـ) اعتداءات القبائل :

لاتشير المصادر الى وقوع اعتداءات من القبائل أو الفرق المختلفة على حجاج طريق الركب الشامى الا بعد سنة ٣٤٤هـ .

---

(٢٠) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٢١٩ .

(٢١) المصدر السابق ، ص٢٢٦

(٢٢) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٢٤٦ .

(٢٣) أبو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ، جـ٢ ، ص١٢٩ .

ففي سنة ٢٤٥هـ بدأ ولي عهد الخليفة العباسي الموفق أحمد يعرض القبائل القاطنة في شمال الحجاز ضد بن طولون . ففي هذه السنة اعتدت القبائل على ركب الحاج الشامي عند مكان يسمى وادى الصفراء وطلبوا من الحجاج دفع الضرائب فأعطوهم الضرائب التي طلبوها فسمحوا لهم بإكمال سيرهم الى مكة[٢٤] .

وفي سنة ٢٦٥ هـ اعتدت القبائل العربية التي تسكن شمال المدينة على ركب الحاج الشامي وقطعوا عنهم الطريق ونهبوا الحجاج وحينما علم الخليفة بذلك ولى محمد بن الساج عاملا له لتوفير الأمن وسلامة الحجاج في كل طرق الحج ولقد استطاع بن الساج القضاء على الفتنة التي قام بها الاعراب[٢٥] .

وفي سنة ٢٦٩ هـ قام محمد بن الساج بحملة مشددة قتل فيها رؤساء القبائل التي تقف في طريق الحاج الشامي وأرسل برئيسهم الى بغداد[٢٦] .

وفي سنة ٢٩٤ هـ تعرض القرامطة لطريق الحاج الشامي واعتدوا عليه فقاموا بطمر الآبار وغيروا معالم الطريق[٢٧] .

وفي سنة ٣٤٣هـ تعرض ركب الحاج الشامي لاعتداء قبيلة بني سليم من قبيلة حرب وسلبوا أموال الحجاج وقتلوا أمير الركب[٢٨] .

وفي سنة ٣٥٥ هـ اعتدت قبائل الرحلة من قبيلة حرب على الركب الشامي وسلبوا أموالهم وفرضوا عليهم المكوس التي لم تدفع من قبل وأخيرا دفعوا ضريبة سنتين[٢٩] .

---

(٢٤) الجزيري : درر الفوائد ، ص٢٢٩ .
(٢٥) ابن الاثير : الكامل ، جـ٦ ، ص٧٨ .
(٢٦) المصدر السابق ، جـ٧ ، ص٣٨١ .
(٢٧) المصدر السابق ، جـ٧ ، ص٣٩١ .
(٢٨) المصدر السابق ، جـ٨ ، ص٥٩ .
(٢٩) الجزيري : درر الفوائد : ص٢٤٤ .

وبعد أن تم للدولة الفاطمية السيطرة على مصر والشام اهتم المعز لدين الله الفاطمي بعملية ركب الحجاج فأرسل معهم فرقا عسكرية لحمايتهم واستمرت هذه الفرق تخرج مع الحجاج في كل عام[٣٠] ولم يتعرض بعد ذلك حجاج الركب الشامي لاعتداء القبائل الا بعد ضعف الخلافة الفاطمية ونقص ارسال الاعطيات الى مكان الطرق .

ففي سنة ٤١٧ تعرض حجاج الركب الشامي لاعتداء قبيلة حرب شمال المدينة وقطعوا عليهم الطريق ومنعوا عنهم الماء وطلبوا منهم أن يدفعوا ضريبة سنتين ودفع الحجاج ما معهم من أموال من أجل أن يسمحوا لهم بمواصلة المسير الى مكة[٣١] .

وفي سنة ٥٤٣ هـ أصبح خطر قبائل حرب يزداد عنفا في طريق ركب الحجاج الشامي فقد اعتدوا على حجاج هذه الركب وأخذوا ما معهم من أموال وأمتعة ومنعوا عنهم الماء[٣٢] .

وحينما ازداد خطر الاعراب بدأ حجاج الركب الشامي في سلوك طريق غير الطريق الذي اعتادوه خشية اعتداء القبائل[٣٣] .

وفي سنة ٥٧٢ هـ قام السلطان صلاح الدين بدفع الاعطيات التي فرضتها القبائل التي تقطن في طريق الركب الشامي وبهذا أمن الطريق من خطر هذه القبائل[٣٤] .

وفي سنة ٥٨٣ هـ بدأ سلاطين الدولة الأيوبية ارسال حاميات عسكرية لحماية الحجاج في طريق الحج المختلفة[٣٥] ولعل وجود ظروف معيشية

---

(٣٠) ابن الاثير : الكامل ، جـ٨ ، ص٥٨٧ .
(٣١) ابن الاثير : الكامل ، جـ٩ ، ص٣٥٦ .
(٣٢) الجزيري : درر الفوائد ، ص٢٦٠
(٣٣) المصدر السابق ، ص٢٦١ .
(٣٤) المصدر السابق ، ص٢٦٥ .
(٣٥) ابن الاثير : الكامل ، جـ١١ ، ص٣٥٢ .

قاسية أدت الى تعرض ركب الحجاج الشامى الى اعتداء الاعراب عليه فلقد هلكت كثيرا من منتوجات المزارع فى الهلال الخصيب بسبب انتشار الجراد سنة ٦٢٠هـ ولربما دفع هذا الحدث الاعراب على نهب حجاج الركب الشامى الا أن أمير الركب استطاع أن يستميلهم بمال وثياب وزعت عليهم مما جعل الركب يسلم منهم[٣٦] .

ثانيا ـ طريق حجاج مصر :

(أ) وصف الطريق :

يبدأ هذا الطريق من مدينة الفسطاط حيث يتجمع الحجاج فى جميع امصار شمال قارة افريقيا والأندلس ويجدر بنا أن نشير الى أن ركب الحجاج المصرى قد بدأ منذ سنة ٢٠هـ وبعد خروج حجاج الركب المصرى من مدينة الفسطاط يتجهون الى البركة ثم يرحلون من البركة الى السويس ومنها الى نخل بسيناء[٣٧] وقد وصف هذه القرية الشاعر المتنبى :

ومرت بنخـل وفى ركبهـا عن العالمين وعنـه غنى[٣٨]

وهذه القرية هى منازل لبنى مرة بن عوف ويوجد بها آبار وبرك من الماء يستقى منها الحجاج[٣٩] ثم يرحل الحجاج الى ايله (العقبة) وتقع على ساحل القلزم وكان الحجاج يقيمون فيها يومين لوجود أسواق قديمة بها ويتوفر فى ايله المأكل والمشرب [٤٠] .

ومن ايله يرحل الركب الى حقل وهى مدينة تقع على ساحل بحر

---

(٣٦) الاشرف الغسانى : المسجد المسبوك ، جـ٢ ، ص٣٩٥ .

(٣٧) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٤٤٩ .

(٣٨) أبو الفرج الأصفهانى : الأغانى ، دار الشعب بمصر ، ١٩٧٠ م جـ١٧ ، ص٦٣٤٣ .

(٣٩) ياقوت : معجم ، جـ٥ ، ص٢٧٤ .

(٤٠) المصدر السابق ، جـ١ ، ص٢٩٢ .

القلزم أيضا وبها ماء عذب ثم يرحلون بعد ذلك متجهين الى مدين وبها ماء عين مغارة وتوجد بها آثار قديمة لرسول الله شعيب عليه السلام ويقيمون فيها ويتزودون بمائها[٤١] .

ثم يرحلون الى عيون القصب وتكثر بها العيون وفي بعض الأحيان تضعف منابع هذه العيون والسبب يعود الى كمية الأمطار التى تسقط على شمال الجزيرة ولقد اشتهرت هذه المنطقة بزراعة نبات القصب[٤٢] ومن هناك يرحلون الى مكان يسمى وماؤها شديد الملوحة وبعدها يرحلون الى الأزلم وتشتهر بأسواقها ويقيمون فيها يوما واحدا ثم يرحلون الى التوجه وتقع على بحر القلزم ثم يتجهون الى اكرى وهى منطقة وعرة وهنا يصادف الركب المصرى صعوبة فى وصولهم الى هذه القرية لخروج ماء البحر الى اليابس[٤٣] .

ومن اكرى يرحل حجاج الركب المصرى الى الحوراء وتقع على ساحل البحر الأحمر أيضا ثم يرحلون الى نبطة وبها ماء عذب يتزودون منه ثم يرحلون الى ينبع حيث يقيمون يومين وبينبع آبار عديدة ومنها يرحلون الى بدر حيث يلتقي الركب المصرى بالركب الشامي[٤٤] وبعد اجتماعهم فى بدر يرحلون الى رابغ وهى محاذية للجحفة التى تعتبر ميقات أهل مصر فيحرمون منها ويخرجون مهللين مكبرين متجهين الى خليص التى تمتاز بمائها العذب[٤٥] ثم يرحلون منها الى عسفان ومن عسفان يتجهون الى بطن مر وفيها يستعدون لدخول مكة المكرمة وعند دخولهم مكة المكرمة يدخلونها من مكان يسمى الشبيكة[٤٦] .

---

(٤١) الجزيرى : درر الفوائد ص٤٥٠ .
(٤٢) المصدر السابق ، ص٤٥٤ .
(٤٣) ياقوت : معجم ، ج١ ، ص٤٥١ .
(٤٤) على المالكى : الشامى الصغير ، ورقة ٣٦ .
(٤٥) على المالكى : الشامى الصغير ورقة ٣٦ .
(٤٦) المصدر السابق ، ص٤٥٣ .
ـ انظر خريطة الركب المصرى رقم (٣) .

(ب) الخـــدمات :

وفى سنة ٧٩هـ أرسل الخليفة عبد الملك بن مروان أموالا مع أمير الحج من أجل أن يقوم على انفاقها على كل من تضرر من الحجاج ولقد تضرر حجاج الركب المصرى هذا العام بسبب هطول أمطار كثيرة فى طريق ركبهم(٤٧) .

وفى سنة ٩١هـ أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بتعبيد طريق ركب الحجاج المصرى وأمر كذلك بحفر الآبار فى بعض القرى على هذا الطريق(٤٨) .

وفى سنة ٩٧هـ أمر الخليفة سليمان بن عبد الملك عامله فى مصر بتوزيع المال على الحجاج القاصدين مكة(٤٩) .

وفى سنة ٩٩هـ أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بتجديد تعبيد طريق ركب الحجاج المصرى(٥٠) .

وفى سنة ١٠٤هـ أمر الخليفة يزيد بن عبد الملك بحفر الآبار فى طريق ركب الحاج المصرى(٥١) .

ويمكننا القول بأن الخدمات على طريق الركب المصرى توقفت من سنة ١٠٥هـ الى سنة ١٣٤هـ .

وفى سنة ١٣٥هـ أمر الخليفة أبو العباس السفاح باصلاح طريق الركب المصرى وأمر كذلك بحفر الآبار فى منطقة الوجه لأنه علم بأن الأعراب منعوا الحجاج من شرب الماء العذب(٥٢) .

---

(٤٧) الطبرى : تاريخ : جـ٦ ، ص٦٨٠ .
(٤٨) ابن الاثير : الكامل ، جـ٤ ، ص٥٥٤ .
(٤٩) المصدر السابق جـ٥ ص٢٦ .
(٥٠) الطبرى : تاريخ ، جـ٦ ، ص٥٥٣ .
(٥١) المصدر السابق ، جـ٧ ، ص٢١ .
(٥٢) الطبرى : تاريخ ، جـ٧ ، ص٤٦٥ .

وفي سنة ١٣٧هـ أمر الخليفة أبو جعفر المنصور عامله على مصر بأن يقوم بتوزيع أعطيات للاعراب القاطنين بطريق الركب المصرى كما أنه أمر ببناء المساجد فى هذا الطريق(٥٣) .

وفى سنة ١٦٦هـ أمر الخليفة المهدى عامله فى مصر ببناء محطات فى طريق الحاج المصرى كما أمر بتعبيد الطرق وبتوزيع أموال على الأعراب الموجودين على طريق الركب المصرى(٥٤) .

وفى سنة ١٦٥ هـ أمر أيضا صاحب البريد باقامة محطات للبريد فى طريق الحاج المصرى ووزع فيها البغال والحمير الخاصة بهذا الغرض(٥٥) .

وحينما آلت الخلافة الى هارون الرشيد أمر فى سنة ١٧٥هـ عامله فى مصر باصلاح طريق الحاج المصرى وبتوزيع أموال على الأعراب القاطنين فى هذا الطريق(٥٦) .

وفى سنة ٢٠٩هـ كان والى مكة صالح بن العباس قد كتب الى المأمون يستأذنه فى حفر الآبار وعمل البرك فى طريق الحاج المصرى ولقد تم عمل بركة فى السويس حيث ان حجاج الركب المصرى لم يجدوا ماء فى السويس فى السنوات التى قبلها(٥٧) .

وفى سنة ٢٦٠ هـ استطاع والى مصر أحمد بن طولون اصلاح ركب الحجاج المصرى ولقد وزع أعطيات على الأعراب القاطنين على هذا الطريق(٥٨) .

---

(٥٣) ابن الاثير : الكامل ، جـ٥ ، ص٤٨٠ .
(٥٤) المصدر السابق ، جـ٦ ، ص٥٠ .
(٥٥) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ، ص٢٤٩ .
(٥٦) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٢١٩ .
(٥٧) الجزيرى : درر الفوائد ص٢٢١
(٥٨) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، المطبعة الميمنية بمصر ، ١٣١٠هـ جـ ١ ص ٦٩ .

وفى سنة ٣٢٥هـ اهتم محمد بن الاخشيدى بطريق الحجاج المصرى وقدمت أعطيات للاعراب القاطنين على هذا الطريق من قبله[٦٠] .

وفى سنة ٣٦٣ هـ اهتم الخليفة المعز لدين الله الفاطمى بطريق الحاج المصرى وقام بتوزيع أعطيات على سكان هذا الطريق كما شملت أعطياته لسكان مكة أيضا[٦١] .

وفى سنة ٤١٠هـ وفى عهد الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى أعيد اصلاح طريق الحاج المصرى[٦٢] .

وفى سنة ٥٥٥هـ حج أسد الدين شيركوه مع حجاج الركب المصرى ووزع على الأعراب أعطيات كثيرة[٦٣] .

وفى سنة ٥٧٢هـ أرسل صلاح الدين الاعطيات والصدقات لتوزيعها على سكان أهل القرى المجاورة لمكة ولسكان مكة والغى المكوس التى كانت تؤخذ من الحجاج من قبل والى مكة والاعراب الموالين له ولقد دفع لوالى مكة ألفى دينار وألفى أردب من القمح وغدت تدفع وتحمل الى والى مكة كل عام[٦٤] .

وفى سنة ٦٤٥هـ أرادت شجرة الدر الحج وفضلت الذهاب عن طريق البر فأمرت باصلاح الطريق وحفر الآبار وبناء البرك على طول طريق الحاج المصرى ولقد قامت أيضا بتوزيع الهدايا والاعطيات على الاعراب القاطنين بطريق الحج المصرى[٦٤] . وبذلك أحيت شجرة الدر

---

(٦٠) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٢٤٦ .
(٦١) المصدر السابق ص ٢٥٢ .
(٦٢) ابو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر ، جـ٢ ، ص٤٢ .
(٦٣) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ، ص١١٢ .
— ابن جبير : الرحلة ، ص٢٨ .
(٦٤) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص٧٥ .
— حمد لبيب البطوطى : الرحلة التجارية ، ص٣١ .
— محمد ابراهيم رفعت : مرآة الحرمين ، جـ١ ، ص٦٩ .

طريق الحجاج المصرى بعد أن فسد مدة من الزمن . وبعد هذا التاريخ أعيد خراب هذا الطريق ولم يستخدم من قبل الحجاج الا بعد أن أحياه الظاهر بيبرس سنة ٦٦٦هـ .

(جـ) اعتداءات القبائل :

من المعلوم أن طريق الحجاج المصرى لم تحدث فيه اعتداءات كبيرة ويعود هذا الى اهتمام الطولونيين بطريق الحاج المصرى فى الفتره الزمنية التى حكموا فيها مصر . ولقد استمر هذا الاهتمام من قبل الاخشيديين وبعد أن سيطرت الدولة الفاطمية على مصر اهتم خلفاؤها بطريق الحجاج المصرى وقدموا الاعطيات ولم تحدث اعتداءات القبائل الا بعد ضعف الخلافة الفاطمية .

فى سنة ٤٦٣ هـ اعتدت قبائل حرب المقيمة فى الجوف على ركب الحجاج المصرى ومنعوا حجاج الركب من شرب الماء[٦٥] .

فى سنة ٥١٢ هـ اعتدت القبائل العربية (حرب) على حجاج الركب المصرى وقطعوا عليهم الطريق ومنعوهم من دخول مكة[٦٦] .

وفى سنة ٥٤٥هـ اعتدت القبائل العربية على ركب الحجاج المصرى واستولوا على أموالهم وهلك من الحجاج عدد كبير وفر البعض الاخر ووصلوا الى المدينة[٦٧] .

وفى سنة ٥٥٣هـ علم حجاج الركب المصرى بتربص الاعراب القاطنين فى الطريق لهم وأدى ذلك الى أن يغير حجاج الركب المصرى طريقهم ولذلك وجدوا صعوبة شديدة ولكنهم نجوا من شر الاعراب[٦٨] .

---

(٦٥) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٢٥٦ .
(٦٦) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٢٥٩ .
(٦٧) المصدر السابق ، ص٢٦٠ .
(٦٨) المصدر السابق ، ص٢٦١ .

وفى سنة ٥٦٠ اعتدى الاعراب على حجاج الركب المصرى وقطعوا عليهم الطريق وسلبوا أموالهم وأمتعتهم[٦٩] .

وفى سنة ٥٨٢هـ اعتدى عبيد الاشراف امراء مكة على حجاج الركب المصرى وقطعوا عليهم الطريق ونهبوا أموالهم[٧٠] .

(د) الطريق البحرى :

لقد أخذت عيذاب بعد انتقال الدولة الفاطمية الى مصر أى منذ النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى تقوم بدور رئيسى فى تجارة الشرق الأقصى والبحر الأحمر . ويرجع ذلك التطور فى تاريخ ميناء عيذاب الى سياسة الفاطميين الحكيمة فى حسن معاملة التجار والترحيب بهم وفى توفير الأمن والاستقرار فى دولتهم التى سيطرت بسيادتها على المغرب ومصر والشام والحجاز على هذه المنطقة الاستراتيجية الهامة فى الشرق الأوسط والتى تتحكم فى تجارة المرور بين الشرق الأقصى وأوروبا[٧١] . كما يرجع ذلك الى عمق وغزارة ميناء عيذاب وخلوها من الشعاب المرجانية التى يمتلىء بها البحر الأحمر والتى كانت من أكبر الأخطار التى تتعرض لها الملاحة فى هذا البحر ولذلك كان البحارة والتجار يفضلون الرسو فيها عند مقدمهم من عدن وعند رحيلهم منها[٧٢] .

وفى منتصف القرن الخامس الهجرى ازدادت أهمية ميناء عيذاب

---

(٦٩) المصدر السابق ، ص٢٦٣ .

(٧٠) المصدر السابق ، ص٢٦٦ .

(٧١) أحمد دراج : عيذاب مجلة نهضة افريقية — السنة الأولى — العدد التاسع ، يوليو ١٩٥٨م .

(٧٢) أحمد دراج : عيذاب مجلة نهضة افريقية ، السنة الأولى ، العدد العاشر اغسطس ١٩٥٨ .

— عطية القوصى : تجارة مصر فى البحر الأحمر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية ، رسالة دكتوراه ، لم تطبع ، ص١١٨ .

التجارية فأصبحت القاعدة الرئيسية لتجارة البحر الأحمر بعد أن اتخذها تجار القلزم المركز الرئيسى لنشاطهم بدلا من عدن(٧٣) .

ثم مالبثت أن ازدادت أهميتها وأكثر ابتداء من سنة ٤٦٠هـ بسبب الشدة العظمى التى قاستها مصر فى عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى وذلك لخراب الوجه البحرى وتحول قوافل التجارة وركب الحجاج المصريين والمغاربة من طريق شبه جزيرة سيناء وشمال الحجاز الى طريق النيل من الفسـطاط حتى قفط أو قوص ومنها كانوا يعبرون الصحراء الشرقية الى ميناء عيذاب . ومن عيذاب يعبرون البحر الأحمر الى جدة بواسطة الجـلاب(٧٤) .

وقد استمر استخدام الحجاج المصريين والمغاربة لهذا الطريق زيادة على مائتى سنة الى أن كانت سنة ٦٦٩هـ ففى هذه السنة أخرج السلطان بيبرس قافلة الحج من البر ، أى عبر شبه جزيرة سيناء وبذلك قل سـلوك الحجاج لطريق عيذاب غير أن بضائع التجار استمرت تحمل من عيذاب الى قوص الى أن أبطل ذلك بعد سنة ٧٦٠هـ بسبب خراب الصعيد(٧٥) . وبعد انتهاء الشـدة العظمى ظل طريق قوص — عيذاب — جدة الطريق الذى يسلكه حجاج مصر والمغرب بسبب تزايد أهمية ميناء عيذاب كقاعدة رئيسية لتجارة البحر الأحمر بعد أن اتخذها تجار الكارم المركز الرئيسى

---

(٧٣) ابن ايبك الدواداري : الدرة المضيئة فى اخبار الدولة الفاطمية وهو الجزء السادس من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٣٨٠هـ/١٩٦١م ، ص٣٨٠ . ويشير المؤرخ فى حوادث سنة ٤٠٦ هـ اى قبل الشدة المستنصرية الى تأخر تجارة الكارم الى عيذاب

(٧٤) ناصر خسرو : سفر نامه ، ترجمة يحيى الخشاب ، ص٧٧ .

(٧٥) المقريزى : الخطط ، طبعة جديدة بالأوفست ، مؤسسة الحلبى للقـاهرة جـ١ ، ص٢٠٢ .

لنشاطهم (٧٦) . فقد شهد ابن جبير في رحلته الى الأراضي الحجازية سنة ٥٧٩ هـ بان عيذاب كانت من أجل مراسي الدنيا بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها بالاضافة الى مراكب الحجاج الصادرة والواردة على الرغم من كونها في صحراء لا نبات فيها وأنه لا يؤكل شيء فيها الا مجلوب لأن أهلها بسبب الحجاج تحت مرفق كبير ولاسيما مع الحجاج لأن لهم على كل حمل طعاما يحملونه ضريبة معلومة خفيفة المؤونة بالاضافة الى الوظائف المكوسية التي كانت قبل أن يوفعها صلاح الدين (٧٧) .

وفضلا عن ذلك فان مملكة بيت المقدس الصليبية في عهد ملكها بلدوين الأول قد أخذت تؤمن حدودها من ناحية الجنوب الشرقي فقد قام بلدوين الأول بالسيطرة على صحراء النقب ، ففي سنة ١١١٥م قام بتشييد حصن الشوبك فسيطر منه الصليبيون على المنطقة الممتدة من البحر الأحمر حتى خليج العقبة . وفي العام التالي شيد حصنا آخر في ايله على ساحل خليج العقبة كما بنى قلعة في جزيرة فرعون الواقعة قبالة ايله في خليج العقبة وبذلك يكون قد أغلق البرى للقوافل بين مصر والشام والحجاز وعزل مصر عن بقية العالم الاسلامي في الشرق (٧٨) .

وبذلك استمر طريق قوص ـ عيذاب ـ جدة الطريق الرئيسي لحجاج مصر والمغرب زيادة عن مائتي سنة على الرغم من الأخطار

---

(٧٦) احمد دراج : عيذاب مجلة نهضة افريقية السنة الأولى العدد العاشر ، اغسطس ١٩٥٨م وصلاح الدين الهوني : اضواء جديدة على تجارة الكارم المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ٢٢ ، سنة ١٩٧٥ م ص ١٧ ، ٢٩ .

(٧٧) ابن جبير : الرحلة ، طبعة بيروت ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م ص ٤١ .
ـ المقريزي : الخطط ، ج١ ص ٣٠٢

(٧٨) سعيد عاشور : الحركة الصليبية الطبعة الثالثة ١٩٧٥م ج١ ، ص ٣١٨ ، ٣١٩ .

والأهوال التي كانت تعترض لهم الحجاج في قطعهم لهذا الطريق في الذهاب والعودة في الطريق من قوص الى عيذاب كان الحجاج يقطعونه في سبعة عشر يوما وفيه كان يفتقد الحجاج الماء ثلاثة أيام ممتالية وتارة أربعة(٧٩). وفي عيذاب يغالي الحجاج من أهلها الامرين ظلما على الحجاج كما يذكر ابن جبير(٨٠). وأما طريق العودة من جدة الى عيذاب فيصفه ابن جبير(٨١) على هذا النحو (والركوب من جدة اليها آفة للحجاج عظيمة الا الأقل منهم ممن يسلمه الله عز وجل وذلك أن الرياح تقفيهم على الأكثر في مراسى بصحراء تبعد منها مما يلي الجنوب فينزل اليهم البجاه وهم نوع من السودان ساكنون بالجبال فيغيرون منهم الجمال ويشاكون بهم غير طريق ماء فربما ذهب أكثرهم عطشان وحصلوا على نحلتهم من نفقة أو سواه وربما كان من الحجاج من يتعسف تلك الجهلة على قدميه فيضل ويهلك عطشا والذى يسلم منهم يصل الى عيذاب كأنه منتشر من كفن شاهدنا منهم عدة مقامنا أقواما قد وصلوا على هذه الصفة في ناظرهم المستحيلة وهيئاتهم المتغيرة(٨٢) أي للمتوسمين وأكثر هلاك الحجاج بهذه المراسى ومنهم من تساعده الريح الى أن يحط بمرسى عيذاب وهو الأقل)(٨٣).

الا أنه منذ سنة ٥٤٢هـ بدأ أهل عيذاب يأخذون أجورا باهظة على انتقال الذاهبين الى مكة(٨٤) كما أنهم كانوا يقومون بشحن الجلاب زيادة عن عدده حتى ان الحجاج كانوا يجلبون بعضهم على بعض وهذا

---

(٧٩) ابن جبير : الرحلة ص٤٧ ، ٤١ .

المقريزى : الخطط ج١ ، ص٣٠٢ .

(٨٠) ابن جبير : الرحلة ص٤٣ .

(٨١) المصدر السابق ، ص٤٢ (آفة الحجاج) .

(٨٢) ابن جبير : الرحلة ص٤٣ .

(٨٣) الجزيرى : درر الفوائد ، ص٢٥٤ .

ملكان يعبر عنه أصحاب الجلاب بقولهم (علينا بالألواح ، وعلى الحجاج بالأرواح) وهذا المثل الذى أصبح متعارفا فيما بينهم (٨٤) .

ومن هذه الفترة الزمنية بدأ الحجاج يلاقون الأهوال من أهل عيذاب فى أخذ الأجور الباهضة واستمر الأمر على هذا الحال الى أن أمر صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٢هـ أهالى عيذاب الذين كانوا يتحكمون فى نقل الحجاج برفع زيادة ايجار الجلاب وأن يكون فى نفس الوقت عدد ركاب الجلاب معتدلا كما أنه أبطل المكوس التى كانت تؤخذ من الحجاج وأغدق الاعطيات على أهل عيذاب(٨٥) وعلى هذا النحو استمر طريق قوص عيذاب جدة طريق حجاج مصر والمغرب حتى نهاية الحقبة الزمنية لهذا البحث .

وبعد أن كان الحجاج يصلون الى جدة ينزلون من الجلاب ويبدأ الأعراب الذين يسكنون جدة يتحكمون فى سعر نقلهم الى مكة المكرمة بواسطة الدواب ولم تظهر ظاهرة زيادة ايجار هذه الدواب من قبل هؤلاء الاعراب الا منذ بداية القرن الخامس الهجرى وقد استمرت هذه المساوىء من الأعراب تجاه الحجاج الى أن قام صلاح الدين باسقاط ما كان يأخذه شريف مكة من مكوس الحجاج بجدة مقابل تعويض عنها وبتوزيع الاعطيات على الاعراب الذين كانوا ينقلون الحجاج من جدة الى مكة . فمنذ ذلك الحين أصبحوا يأخذون من الحجاج أجورا معتدلة(٨٦) .

غير أن هؤلاء الاعراب كانوا يعودون الى المغالاة فى أخذ الأجور من الحجاج والاساءة اليهم عندما كانت كانت لاتصل اليهم(٨٧) .

---

(٨٤) ابن جبير : الرحلة ، ص٤٤ .
(٨٥) المصدر السابق ، ص٤٦ ، ٤٧ .
(٨٦) ابن جبير : الرحلة ، ص٤٩ .
(٨٧) المصدر السابق ، ص٥٠ .

وكان هؤلاء الاعراب تابعين لشريف مكة فهو الذى كان يتحكم فيهم ويحرضهم على المغالاة فى معاملة الحجاج(٨٨) .

وتجدر الاشارة بنا الى أن ضعف سلطة الخلافة هو الذى دفع شريف مكة الى فرض المكوس على الحجاج والى استغلالهم بواسطة الاعـراب الموالين له .

وهكذا نرى أن طريق حجاج الشام وطريق حجاج مصر كانا يلتقيان عند بدر وان وجوه الشبه بين الطريقين المختلفين كانت كثيرة فكان حجاج البلدين يقيمون على الطريق البرى فترة أطول حيثما توفر الماء العذب والغذاء الصالح ويبكرون بالرحيل كلما قل الماء أو ساءت البيعة أو ندر الغذاء وقد توفر لحجيج مصر طريق بحرى بالاضافة الى الطريق البرى .

كما تشابه الطريقان البريان فى تعرض الحجاج لاعتداءات القبائل ومعاناة حجاج البلدين فى فترات مختلفة من فرض المكوس والاتاوات العالية عليهم من قبل شريف مكة وأعوانه من الاعراب وكان ذلك يزداد كلما ضعفت الخلافة المركزية ويقل أو يختفى كلمـا قويت الخلافة المركزية وكذلك كان الاعتداء عليهم الحجاج يقل كلما اهتمت حكومة أى من البلدين الشام ومصر بترضية قبائل العرب بالاعطية والأموال أو بتوفير الحماية العسكرية للحجيج من رعيتها والله الموفق ...

---

(٨٨) الفاسى : شفاء الغرام ، جـ١ ، ص١١٨ .

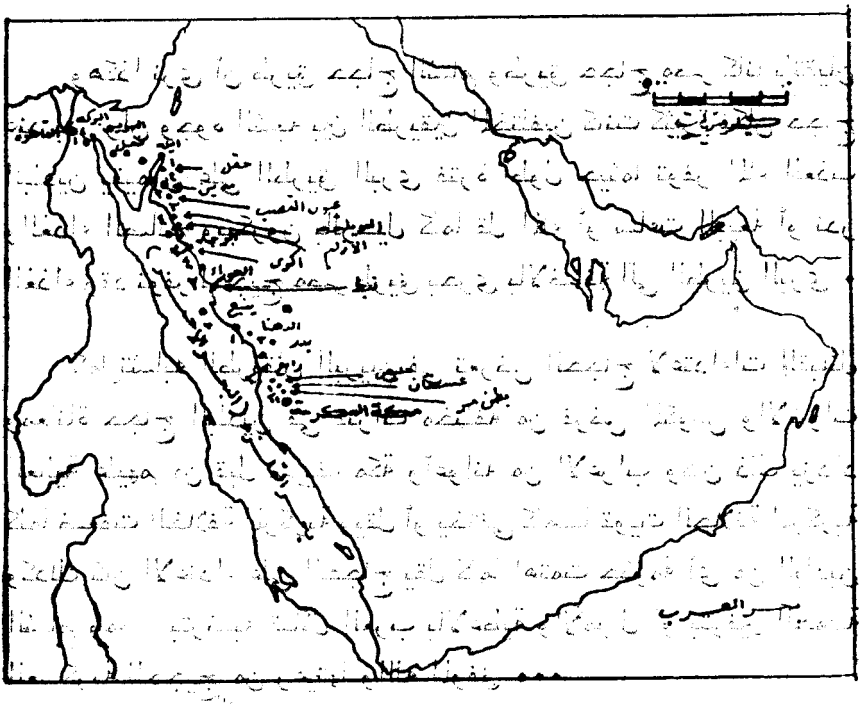

خريطة
طريق ركب الحاج المصرى

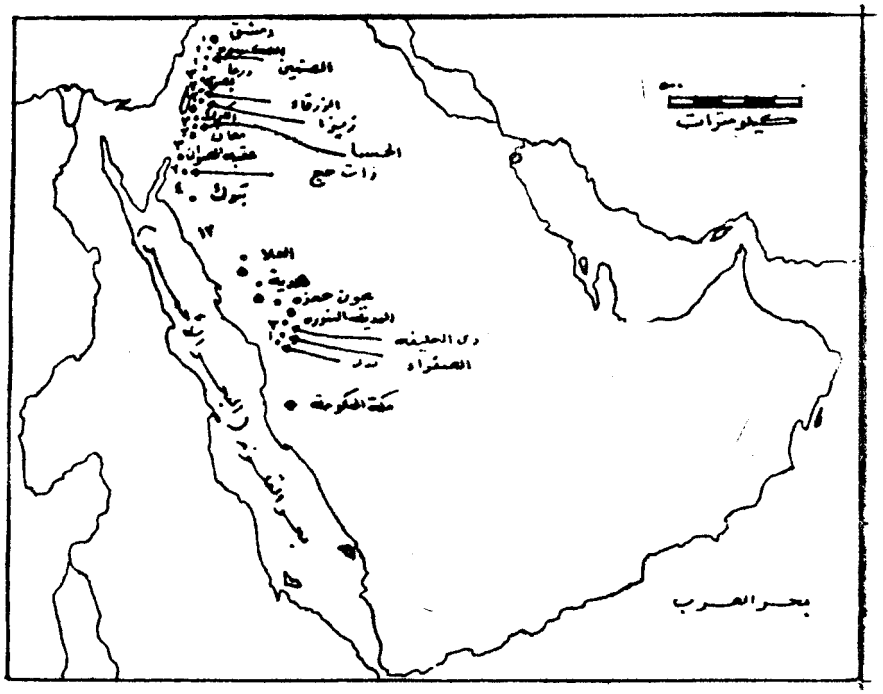

خريطه

طريق ركب الحاج الشامى